الفصل السابع

واجتباه ربه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء - الآية ١].

(١)

المكان: الكعبة.

الوقت: مساء.

اليوم: الاثنين.

الشهر: رجب.

السنة: الأخيرة قبل الهجرة.

صلى محمد ﷺ لربه صلاة العشاء، ثم استغرق فى العبادة، والتأمل..

ترى فيم تفكر يا حبيبى؟.

أتفكر فى أهل مكة الذين تخلوا عن كل قيمهم، ووجهوا كل همهم وكل همتهم إلى مقاتلة الحق: إلى الحد الذى جعلك لا تجد من بينهم - بعد وفاة عمك أبى طالب - مجيرا ولا نصيرا: إلا بعد تعب وأى تعب، مع أنك صاحب حق، وصاحب دعوة هى الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!.

ولقد ضل أهل قريتك التى أحببت، أضلهم إبليس اللعين عن النور والهدى الذى جاءهم من الله، وعن كتاب الله المبين.

وبات الأقوياء من أهل مكة ومن حولها يطاردونك بالكراهية، وينبذونك من بينهم، وأنت يا حبيبى لم تكره أحدا وما كرهت مخلوقا، فلم تعرف نفسك الطيبة ظلا من كراهية، وقد أعلمك الله أن الأنبياء والرسل على مدى عمر البشرية يواجهون بالكراهية والأذى.

أم تراك قد أخذك التفكير إلى ما يلاقى أصحابك من تعذيب وظلم وهجرة، حتى لتشق عليهم الحياة، فتصبح عذابًا وابتلاء؟.

ترى أهذا ما كان يستغرق تفكيرك يا حبيبى؟.

وإنك فى النهاية تخلص إلى عقيدتك الراسخة رسوخ الجبال، من كون كل شدة تهون يا رب. إذا لم

يكن بك سخط علي، أو غضب مني، لأنك يا حبيبي من الصابرين الذين قال فيهم رب العزة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [سورة البقرة - الآية ١٥٦].

وهـا هو ذا رسـول الله ﷺ قـد دخل في حال الاسـتغراق، فارتقى ليعيش في نـور الله، ويصير فيضا من النـور، حتى لا يدرى عن كيانه البشـرى شـيئا: أهو دم ولحم وعظـم، أو هو روح تهيم في ملكوت ربها؟.

يقول ﷺ:

- بينما أنا في الحطيم مضطجعا إذ آتاني آت، فشـق ما بين هذه إلى هذه، وأشـار إلى مكان صدره وسرته: فاستخرج قلبي.

ثم جاء جبريل ﷺ إلى رسول الله، ومعه دابة بيضاء، هي فوق الحمار ودون البغل. فهي وسط بين هـذا وذاك، ودعـا محمدا ﷺ لأن ينهض، فنهض، ثم دعـاه لأن يركب البراق، ففعل، وانطلقت به الدابة وخطوها عجب عجاب، فالأرض تطوى لها طيا، وخطوتها تصل لأبعد ما يدرك البصر، فكأنها هي البرق لا البراق.

فسبحان الخلاق العظيم..

خلق ما خلق.

ويخلق مالا تعلمون.

وعند أرض بها نخل توقف البراق وقال له جبريل:

- انزل فصل.

وترجل رسول الله، وصلى ركعتين، ثم عاد فركب الدابة، وسأله جبريل:

- أتدرى بأى أرض صليت؟.

قال:

- لا.

قال جبريل:

- لقد صليت بطيبة و إليها المهجر.

وانطلـق البراق، وما هـي إلا لحظات حتى توقف، وأعاد جـبريل على رسـول الله: طلب النزول والصلاة، ونزل النبي فصلى، ثم أخبره جبريل أنه صلى بمدين مهبط مـوسى.

وتكرر الأمر للمرة الثالثة، ونزل النبي عن البراق وصلى، ثم أخبر بأنه صلى بطور سيناء حيث كلم الله نبيه موسى تكليما.

وفـي المـرة الرابعـة صلـى ببيـت لحم، وهـي أرض ذات قصـور: حيـث ولـد نبي الله عيسـى عليه السلام.

(٢)

وبينما البراق يشق الأرض شقا، إذ بعفريت من الجن يلاحق النبى بشعلة فى يده يريد أن يؤذيه، ولقد رأى النبى ذلك، فالتفت يطلب العون من مبعوث السماء، فقال له جبريل:

– ألا أعلمك كلمات تقولهن، فإذا قلتهن طفئت شعلته.

قال النبى ﷺ:

– نعم يا آخى يا جبريل.

قال جبريل عليه السلام:

– قل، أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ فى الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن.

لما قالها رسول الله ﷺ ،انكب العفريت على وجهه، وانطفأت شعلته.

فسبحان الله المعيذ لمن يستعيذ.

ومر البراق بناس يزرعون ويحصدون فور زرعهم، وكلما حصدوا عاد الزرع كما كان، فسأل جبريل عنهم، فقال:

– هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شىء فالله يخلفه.

ومست أنف النبى ريح طيبة كأنها المسك، فسأل جبريل فقال:

– هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، كانت تمشط شعر سيدتها فوقع المشط من يدها فقالت: بسم الله، تعس فرعون.

فسألتها ابنة فرعون: أولك رب غير أبى؟!.

فقالت لها: نعم، ربى وربك هو الله.

وكانت المرأة متزوجة، ولها ابنان، فأرسل فرعون يستدعيها وزوجها، وأخذ يساومهما للرجوع عن دينهما فأبيا، فقال فرعون: إنى قاتلكما. فرجته المرأة أن يجمع عظامها وعظام زوجها ويدفنهما معا، فقال فرعون: سوف أجيبك إلى طلبك.

وحين التنفيذ أوقدت النار وحضرت المرأة تحمل رضيعها، وإلى جانبها يسير ابنها وزوجها، وألقى الزوج فى النار، ولما جاء دور الأم نظرت إلى وليدها وتقاعست حنانا عليه، فإذا بالوليد ينطقه الله فيقول لأمه:

– يا أمه قعى ولا تتقاعسى، فإنك على الحق.

(٣)

واستمرت الآيات تترى..

ليريه ربه من آياته..

ويعلمه ما لم يكن يعلم.

فمر بأناس تقطع رؤوسهم، وكلما قطعت عادت كما كانت، وأعلمه جبريل أن هؤلاء هم الذين تتشاغل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على أناس على أقبالهم وعلى أدبارهم رقاع، وقال عنهم جبريل: إنهم الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئا.

ومن بعدهم مر البراق بأناس وضعت أمامهم قدور بها لحم طيب ناضج، وأخرى بها لحم نيئ خبيث، فيتركون اللحم الطيب، ويأكلون من اللحم الخبيث، فسأل رسول الله:

- ما هذا يا جبريل؟.

قال جبريل:

- هؤلاء أناس من أمتك تكون عندهم المرأة حلالا طيبا، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى الصباح.

ثم مضى هنيهة، فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، فيها الحياة ترى من خارجها، كلما نهض أحدهم خر، فيقول: اللهم لا تقم الساعة. وهم على سابلة آل فرعون، فتجئ السابلة فتطؤهم، فيضجون إلى الله تعالى.

فقال رسول الله:

- يا جبريل من هؤلاء؟.

قال جبريل:

- هؤلاء من أمتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴿٢٧٥﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٧٥].

وبعد هنيهة إذا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ويلقمون من صخر جهنم، ثم يخرج من سافلهم، وسمعهم يضجون إلى الله تعالى، وسأل رسول الله.

فقال جبريل:

- هؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٠].

ومن بعدهم مر على نساء معلقات بأثدائهن، ونساء منكسات بأرجلهن، وسمعهن يضججن إلى الله تعالى، وأعلمه جبريل بأنهن اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن.

ومضى هنيهة فإذا بقوم يقطع اللحم من جنوبهم فيلقمونه، ويقال للواحد منهم:

– كل كما كنت تأكل من لحم أخيك.

فقال:

– من هؤلاء يا جبريل.

قال:

– هؤلاء الهمازون اللمازون.

ثم أتى على خشبة بالطريق لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقته، فلما سأل، قال له جبريل:

– هؤلاء مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه.

ثم رأى رجلا قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها. ولما سأل، قيل: إن هذا الرجل عنده أمانات الناس لا يستطيع أداءها؛ ويريد أن يزيد عليها.

ومرا بعدها على قوم تقرض ألسنتهم بمقارض من حديد، وكلما قرضت عادت. قال رسول الله:

– من هؤلاء؟.

قال جبريل:

– هم خطباء الفتنة من أمتك يقولون مالا يفعلون.

ثم أتيا على قوم لهم أظافر من نحاس. يخمشون بها وجوههم وصدورهم، وقال جبريل:

– هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم.

وأتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، ثم أخذ الثور يريد العودة من حيث أتى فلا يستطيع، وقال جبريل عنه:

– إنه الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ويريد أن يرجع عنها، فلا يستطيع ردها.

٤

وسمع صوت آت من واد تفوح منه ريح طيبة باردة أحسن من ريح المسك، فسأل رسول الله ﷺ، فقال جبريل:

– هذا صوت الجنة تقول.. يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت غرفي وإستبرقي وحريري وسندسي وعبقري، ولؤلئي ومرجاني، وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافي، وأباريقي ومراكبي، وعسلي ومائي، ولبني وخمري.

قال تعالى: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحا، ولم يشرك بي، ولم يتخذ من دوني أندادا، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل على كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد. وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين. قالت الجنة: قد رضيت.

وأتى على واد ثان فسمع صوتا منكرا، ووجد ريحا منتنة، فسأل رسول الله ﷺ:

– ما هذا يا جبريل؟!.

قال جبريل:

– هـذا صوت جهنم، تقول: يا رب إيتنى بما وعدتنى؛ فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى، وحميمى وضريعى وحمامى وغساقى وعذابى؛ وقد بعد قعرى واشتد حرى، فآتنى بما وعدتنى. فيقول الله: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وخبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب؛ قالت النار: قد رضيت.

٥

رأى النبى ﷺ، الدجال أقمر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، وكأن شعر رأسه أغصان شجرة، ثم رأى عامدا أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة، فلما سأل:

– ما تحملون؟.

قالوا:

– عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام.

وبينما البراق يسير دعا النبى داع عن يمينه يقول:

– يا محمد، انظرنى أسألك.

فلم يجبه رسول الله ﷺ، فلما سأل:

– من هذا يا آخى يا جبريل؟.

أجاب جبريل عليه السلام:

– هذا داعى اليهود، أما انك لو أجبته لتهودت أمتك.

ثم ما لبث أن دعاه داع عن شماله:

– يا محمد، انظرنى أسألك.

فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأل:

– من هذا يا جبريل؟.

قال جبريل عليه السلام:

– أنه داعى النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك.

ثم إذ بامرأة حاسرة عن ذراعها، وعليها من كل زينة خلقها الله سبحانه وتعالى، فقالت:

– يا محمد، انظرنى أسألك.

فلم يجبها، ثم قال:

– ومن هذه يا جبريل؟!.

قال جبريل:

– تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها،لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

وبعدها ظهر رجل متنح عن الطريق يدعوه:

– هلم يا محمد.

فلم يلتفت إليه وتقدم فى طريقه، وأعلمه جبريل أن ذاك الرجل هو إبليس عدو الله أرادك أن تميل إليه.

٦

ولما وصلا إلى بيت المقدس دخلاه من بابه اليمانى، وإذا عن يمين المسجد الأقصى، وعن يساره نوران ساطعان، فقال رسول الله متسائلا:

– ما هذان النوران يا جبريل؟.

قال جبريل:

– أما الذى عن يمينك فإنه محراب أخيك داود، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم.

ودخل رسول الله المسجد من باب تميل منه الشمس والقمر، وعند الصخرة سأل جبريل محمدا ﷺ:

– هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟.

قال رسول الله:

– نعم.

فأشار جبريل إلى جانب من الصخرة، وقال:

– فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن، وهن جلوس عن يسار الصخرة.

فسلم رسول الله عليهن، ثم سألهنَ عن كينونتهن، فقلن:

– خيرات حسان، نساء رجال أبرار، نقوا فلم يدرنوا وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا.

ثم صلى النبى فى المسجد منفردا ركعتين، وصلى جبريل منفردا ركعتين، ولم يلبثا إلا قليلا، ثم توافد ناس كثيرون، ثم أذن مؤذن، فتدافعوا حتى قدموا محمدا ليصلى بهم، فصلى بهم، فلما ختمت الصلاة، قال جبريل:

– أعلمت من صلى خلفك؟.

قال رسول الله ﷺ:

– لا.

قال جبريل:

– كل نبى بعثه الله.

ثم بدأ الأنبياء فى الثناء على ربهم، فقال إبراهيم عليه السلام:

– الحمد لله الذى اتخذنى خليلا، وأعطانى ملكا عظيما، وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى، وأنقذنى من النار، وجعلها على بردا وسلاما.

وأثنى موسى عليه السلام على ربه، فقال:

– الحمد لله الذى كلمنى تكليما، وجعل هلاك فرعون، ونجاة بنى إسرائيل على يدى، وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم أثنى داود عليه السلام على ربه، فقال:

– الحمد لله الذى جعل لى ملكا عظيما، وعلمنى الزبور، وألان لى الحديد، وسخر لى الجبال يسبحن والطير، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب.

وأثنى سليمان عليه السلام على ربه، فقال:

– الحمد لله الذى سخر لى الرياح، وسخر لى الشياطين والإنس، يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير، وآتانى من كل شىء فضلا، وسخر لى جنود الشياطين، والإنس والطير، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى، وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب ولا عقاب.

وأثنى عيسى بن مريم عليه السلام على ربه، وقال:

– الحمد لله الذى جعلنى كلمته، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، ورفعنى وطهرنى، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ولم يكن للشيطان علينا سبيل.

فقال محمد ﷺ:

– كلكم أثنى على ربه، و إنى مثن على ربى.. الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرا ونذيرا، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس،وجعل أمتى وسطا، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون، وشرح لى صدرى، ووضع عنى وزرى، ورفع لى ذكرى، وجعلنى فاتحا وخاتما.

فقال إبراهيم عليه السلام:

– بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين اجتمعوا على حديث تذاكروا أمر الساعة، فقال إبراهيم عليه السلام:

– لا علم لى بها.

وقال موسى عليه السلام، مثل ما قال إبراهيم عليه السلام، ثم قال عيسى عليه السلام:

– أما وجوبها فلا يعلمه إلا الله، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج، وأنى خارج ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله تعالى ومن معه، حتى أن الحجر ليقول: يا مسلم، إن

ورائى كافرا فتعال فاقتله، فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم. فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون البلاد، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه؛ ثم يرجع الناس فيشكونهم إلى، فأدعو الله تعالى عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تحوى الأرض من ريحهم، فينزل الله المطر. فيجرف أجسادهم إلى البحر؛ ففيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلا أو نهارا.

(٧)

ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم إلى جنة الفردوس: منضد باللؤلؤ، له مرقاة من ذهب، ومرقاة من فضة، عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة، فصعد رسول الله وجبريل حتى انتهيا إلى باب الحفظة، وهو من أبواب السماء الدنيا فاستفتح جبريل: قيل:

– من هذا؟.

قال:

– جبريل.

قيل:

– ومن معك؟.

قال:

– محمد.

قيل:

– أوقد أرسل إليه؟.

قال:

– نعم.

قيل:

– مرحبا به، ولنعم المجىء جاء.

فلما خلصا: فإذا فيها آدم عليه السلام كهيأته يوم خلقه الله: تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها فى عليين؛ ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين.

وكان عن يمينه أسودة وباب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله أسودة وباب تخرج منه ريح خبيثة؛ فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى.

فسلم عليه رسول الله ﷺ، فرد عليه السلام، ثم قال:

– مرحبا بالابن الصالح، وبالنبى الصالح.

فقال رسول الله:

– من هذا يا جبريل، وما هذه الأسودة التى عن يمينه، والتى عن يساره؟.

قال جبريل:

– هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من بنيه ضحك واستبشر، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فسأل عمن معه فأخبرهم، فرحب به الحفظة، بمثل ترحيب من قبلهم، وفتح لهما، فلما خلصا، فإذا بابنى الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، عليهما السلام، شبيه أحدهما بصاحبه: ثيابهما وشعرهما، ومعهما نفر من قومهما.

فسلم عليهما رسول الله، فردا السلام، ثم قالا:

– مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ودعوا له بالخير.

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، وكان مثل ما حدث عند الاستفتاح فى السماءين، ولما خلصا، فإذا بيوسف عليه السلام ومعه نفر من قومه، فسلم عليه فرد السلام، ثم قال بمثل ما قال عيسى، ودعا بمثل ما دعا.

وفى السماء الرابعة التقى بإدريس عليه السلام، وقد رفعه الله مكانا عليا، فسلم رسول الله عليه، ورد عليه سلامه، ثم دعا له.

وفى السماء الخامسة التقى بهارون بن عمران عليه السلام، وحوله قوم من بنى إسرائيل، وسلم عليه رسول الله، ورد عليه بمثل سابقه.

ثم صعدا إلى السماء السادسة..

فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران عليه السلام، رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة، كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر دونهما، فسلم عليه رسول الله، فرد عليه السلام ثم رحب به ودعا له، وقال:

– يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله منى.

فلما جاوزه النبى بكى موسى، فقيل له:

– ما يبكيك؟.

قال:

– يا ربى هذا الغلام الذى بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتى.

(٨)

فلما انتهيا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعدا وبرقا وصواعق، فاستفتح جبريل، ففتح له بعد أن سأل عمن معه، وسمع النبى ﷺ تسبيحا فى السماوات العلا، مع تسبيح كثير يتردد من أصل الموجودات قائلة:

- سبحت السماوات من ذى المهابة مشفقات: «سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى».

ولما خلصا، إذا بإبراهيم عليه السلام جالس عند باب الجنة على كرسى مسندا ظهره إلى البيت المعمور، ومعه نفر من قومه، وحياه رسول الله.

فقال إبراهيم:

- مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم قال لرسول الله:

- مر أمتك، فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة.

فسأله رسول الله:

- وما غرس الجنة؟.

قال أبو الأنبياء إبراهيم:

- سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والله أكبر.

ولحظ رسول الله ﷺ، أن الناس الجلوس حول إبراهيم عليه السلام بعضهم بيض الوجوه مثل القراطيس لا يشوب لون وجوههم شىء، وبعضهم شاب لون وجوههم شىء، فقاموا ودخلوا أنهارا فاغتسلوا فيها، فخرجوا وقد خلصت ألوانها فصارت مثل إخوانهم، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم.

فقال رسول الله:

- يا جبريل من هؤلاء بيض الوجوه، ومن هؤلاء الذين فى ألوانها شىء، وما هذه الأنهار التى دخلوها؟.

فقال جبريل:

- أما هؤلاء بيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء الذين فى ألوانها شىء فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم، وأما هذه الأنهار فأولها: رحمة الله، والثانى: نعمة الله، والثالث: «وسقاهم ربهم شرابا طهورا.»

ثم رفع إلى البيت المعمور..

وقيل للنبى هذا مكانك ومكان أمتك؛ وإذا بأمته شطران:

شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس.

وشطر عليهم ثياب رمد.

فدخل النبى البيت المعمور، ودخل معه من أمته الذين عليهم الثياب الرمد وهم فى خير، فصلى ومن معه من المؤمنين، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

ولما انتهى النبى من صلاته خرج ومن معه.

قال رسول الله ﷺ :

- «مررت ليلة أسرى بى على الملأ الأعلى فإذا جبريل كالحلس البالى من خشية الله».

ثم رفع رسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى، وإليها ينتهى ما يعرض من الأرض فيقبض منها، وإليها ما يهبط من فوق فيقبض منها، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها، وإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها كآذان الفيلة، تكاد الورقة منه تغطى هذه الأمة.

وقيل للنبى:

- هذه سدرة المنتهى ينتهى إليها كل أحد من أمتك سار على نهجك.

وإذا فى أصلها عين تجرى يقال لها السلسبيل، ينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، يطرد عجاجا مثل السهم، عليه خيام من لؤلؤ وياقوت وزبرجد، وعليه طيور خضر أنعم طير، رأى فيه آنية الذهب والفضة، تجرى على رضراض من الياقوت والزبرجد، ماؤه أشد بياضا من اللبن، فأخذ النبى آنية فاغترف وشرب، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد ريحا من المسك.

قال جبريل:

- هذا هو النهر الذى حباك به ربك، والنهر الآخر نهر الرحمة.

فاغتسل فيه النبى، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ولما اقترب النبى من الجنة، فإذا فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فرأى على بابها مكتوبا: «الصدقة بعشرة أمثالها، والقرض بثمانية عشر».

فسأل رسول الله عن السبب، فقال جبريل:

- لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يسأل إلا من حاجة.

واستقبلته جارية فسألها:

- لمن أنت؟.

قالت:

- لزيد بن حارثة.

ورأى الجنة درة بيضاء و فيها قبب من اللؤلؤ، فقال:

- يا جبريل، إنهم يسألوننى عن الجنة؟.

فقال جبريل:

- أخبرهم أنها قيعان ترابها المسك.

وهنا سمع خارجها وجسا، فسأل رسول الله ﷺ :

- يا جبريل ما هذا؟.

قال جبريل:

- بلال المؤذن.

وسار النبى فإذا هو فى الجنة، وبها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كالدلاء، وإذا بطيرها كالبخاتى، وبينما هو يسير بنهر على حفتيه الدر المجوف، وطينه مسك أزفر، قال جبريل:

- هو الكوثر.. وهذا ما وعد به الله عباده المؤمنين.

ثم عرضت عليه النار التى وعد الله بها الكافرين والمشركين؛ فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، ولو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها.

ورأى مالكًا خازن النار، فإذا هو رجل عابس يعرف الغضب فى وجهه، فبدأ رسول الله السلام ﷺ، ثم غلقت النار دونه، وتجسد قول الله جل وعلا: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الزخرف - الآيات ٤١: ٤٢].

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فغشيها من أنوار الخلائق و أنوار الملائكة أمثال الغربان يقض على الشجرة، و ينزل على كل ورقة ملك من الملائكة، فغشيها سحابة من كل لون - وفى حديث - أن جبريل قال للنبى:

- إن ربك يسبح.

قال رسول الله:

- وما يقول؟.

قال جبريل:

- «رحمتى سبقت غضبى».

٩

تأخر جبريل عن رسول الله، فقال له يستحثه:

- تقدم يا أخى يا جبريل.

قال جبريل:

- لكل مخلوق مقام، وأنا لو تقدمت لاحترقت، وأنت لو تقدمت لاخترقت.

ثم عرج بالنبى حتى ظهر لمستوى سمع فيه صرير الأقلام، ورأى رجلا مغيبا فى نور العرش، وأعلم أنه ليس بملك، ولا نبى، بل هو رجل من أمته كان فى الدنيا لسانه رطبا من ذكر الله، وقلبه معلق

بالمساجد، ولم ينتسب لوالديه قط.

وأرى نور ربه سبحانه وتعالى.

فخر ساجدا..

وسلم ساجدا..

وكلمه ربه عند ذلك، فقال له سبحانه وتعالى: «يا محمد»

قال عبد الله محمد:

– لبيك يا رب.

قال تجلت قدرته وعظمته: «سل».

قال:

– إنك رب اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وأعطيت سليمان ملكا عظيما، وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما من سبيل.

فقال الله الحكم العدل الرحمن الرحيم: «قد اتخذتك حبيبا، وأرسلتك للناس كافة بشيرا ونذيرا، و شرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، لا أذكر إلا وذكرت معى، وجعلت أمتك أمة وسطا، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقا وأخرهم بعثا، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعا من المثانى لم أعطها نبيا قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبيا قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وأنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك الصلوات الخمسة، فقم بها أنت وأمتك.

ثم انجلت السحابة.

وأخذ بيده جبريل.

انصرفا سريعا.

وركب النبى منصرفا إلى سماء الدنيا، فرأى دخانا فسأل:

– ما هذا يا أخى يا جبريل؟.

فقال جبريل:

– هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم ممن لا يتفكرون فى ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك الانشغال لرأوا عجبا.

ومر البراق فى طريق العودة لمكة، بعير لقريش منها جمل عليه غرارتان واحدة بيضاء والأخرى

سـوداء، فلما حـاذى العير البراق نفرت واسـتدارت تريد الفرار، فردهـا ركابها، وصرخ البعير حامل الغرارتين فلقد انكسـرت سـاقه، ثم مر بقافلة قد ضل منها بعير، فسـلم النبى على أهلها فسـمعوه، قال بعضهم:

– هذا صوت محمد.

(١٠)

حـين أصبح رسـول الله ﷺ، جلس يتفكر بجانب الكعبة يسـتعيد ما أورى، وهـو مهموم كراهية ألا تصدقه صحابته، فمر عليه أبو جهل، وأسـعده الحال التى رأى النبى عليها، فراح يتظاهر بالتودد إليه، راغبا فى أن يعلم بما أهمه ليفرح وتبرد نار كراهيته قليلا بخبر يسوء محمدا.

قال له شامتا وقد تسترت عباراته فى نفاق كريه:

– هل كان من شىء؟.

قال محمد ﷺ:

– نعم.

قال أبو جهل:

– ما هو؟.

قال محمد ﷺ:

– أسرى بى الليلة.

قال أبو جهل:

– إلى أين؟.

قال رسول الله ﷺ:

– إلى بيت المقدس.

تحركت الأفعى بعنف تستجمع سمها، ثم نفثته بقوة:

– أكنت ببيت المقدس عشية، ثم أصبحت بين ظهرانينا؟!.

قال الصادق ﷺ:

– نعم.

التفت الأفعى حول الفريسـة، ورفعت رأسها وكشرت عن أنيابها متسائلة، والرغبة فى العقر تلهب حماسها فيتناثر السم من شدقيها:

– أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى؟.

قال رسول الله ﷺ:

– نعم أفعل.

اندفعت الأفعى قافزة تنفث السم، تنادى:

– هلم يا معشر بنى كعب بن لؤى.

فانفضت مجالس قريش، وتجمعت حولهما، فقالت الأفعى لرسول الله، والسم يتناثر مع كلماتها، وقد أخذتها شهوة القتل:

– حدث قومك بما حدثتنى.

وحدثهم رسول الله بما حدث، فتصايح القوم غير مصدقين، وقال المطعم بن عدى:

– كل أمرك قبل اليوم كان يسيرا، غير قولك اليوم؛ أنا أشهد إنك لكاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدرا شهرا، أتدعى أنت أنك أتيته فى ليلة، واللات والعزى لا أصدقك.

فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لمطعم:

– بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبته، أما أنا فأشهد أنه صادق.

ورفعت الأفعى رأسها وتمايلت فى سرور، فأبو جهل يعرف أن محمدا ما سافر قط إلى بيت المقدس، فقال له فى تحد:

– إذن صف لنا بيت المقدس، كيف كان بناؤه، وكيف كانت هيئته، وكيف كان قربه من الجبل؟.

وكان من بين القوم من سافر إلى هناك، ورأى المكان وعاين تفاصيله، وبدأ رسول الله يصف البناء، وهم يلاحقونه بالأسئلة، حتى بات الأمر ملتبسا عليه، واستجمعت الأفعى السم فى أنيابها، فقد حان وقت اللدغ.

ولكن إن كان أهل محمد خاذليه، فإن رب العالمين لا يخذله فى أمر هو الصدق بعينه، ونقل القادر بقدرته بيت المقدس إلى رسوله، فصار ينظر إليه ويجيب القوم، فلا يترك أنملة إلا ووصفها، والصديق أبو بكر رضى الله عنه يكبر مؤمنا على كل حرف يقوله، والأفعى تتقلص وتنثنى غيظا وكمدا، وحين انتهت المناظرة، أقر له القوم فقالوا:

– أما النعت فو الله لقد أصاب.

وسارعت الأفعى بالدخول إلى جحرها، ولكنها عادت تطل ومعها مزيد من الأفاعى، فلعل الكثرة توقع بالفريسة، وطلب المتحلقون المزيد من البراهين، فقالوا:

– يا محمد أخبرنا عن عيرنا التى خرجت إلى هناك؟.

قال النبى:

– مررت بعير حالها كذا وكذا..

وأخذ يصف لهم ما رأى العير عليه، وهو فى طريق عودته، ثم أضاف:

– وها هى ذى سوف تطلع عليكم من الثنية.

وتدافعت الأفاعى إلى طريق الجبل تنظر فلا ترى شيئا، فتتمايل فى نشوة، وتمر الساعات، ويقبل

ثم ها هى ذى رائحة التراب تزكم أنوفهم، وتنتشر فتسود وجوههم؛ ومن الثنية تظهر قوافلهم العائدة: وتطأ البعير بخفافها الأفاعى التى أذهلتها المفاجأة فتخشبت فى أماكنها مشدوهة، وقد استغرقتها المفاجأة، ثم لا تكتفى بما ترى، فتنطلق إلى الركب العائد تتحرى، وتتقصى وتدقق؛ فإذا بما قال الرسول صدق من صدق.

وفحت الأفاعى وهى تلهث باحثة عن مفر:

- إنه لساحر، وصدق الوليد!.

سبحانك ربى..

أى عمى هذا الذى أصاب منهم القلوب قبل العيون، فصاروا لا يبصرون، ولا يسمعون، ولا يعقلون؟!.

ألا بعدا للقوم الكافرين.

وانصرف رسول الله ﷺ، وقد تحوط حوله من بقى بمكة من صحابته، يسبحون لله ويكبرون.

وأراد الله أن يثبت فؤاد نبيه ﷺ، فجاءه جبريل عليه السلام وأقرأه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [سورة النجم - الآيات ١: ١٨].

فى الصباح اجتمع رسول الله ﷺ بصحابته، قرأ عليهم ما نزل عليه من سورة النجم، وحين انتهى الرسول إلى ختام السورة قارئا قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ [سورة النجم - الآيات ٥٦: ٦٢].

خر الصحابة «رضى الله عنهم» على وجوههم ساجدين لله، وقد سال الدمع من العيون مدرارا يغسل الأبدان والنفوس، ويثبت اليقين، ويملأ القلوب أملا فى أن تدركها رحمة الله، فيكون أصحابها من ورثة جنات النعيم.

❑❑❑